باب
التاريخ والاجتماع

سورية
في كتاب القومية المصرية

بحث تاريخي انتقادي بمناسبة ظهور كتاب الاستاذ الرافعي
في تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم بمصر

للدكتور اسد رستم

ذكرنا بعدد سابق من اعداد هذه المجلة ما تفعله الجمعية الجغرافية المصرية لاجل تنشيط دراسة التاريخ المعاصر بالقطر المصري . ونوّهنا في مقدمتنا للمجلد الاول من الاصول العربية لتاريخ سورية في عهد محمد علي باشا بعطف جلالة الملك فؤاد الاول على هذه الاعمال جميعها ورعايته لها . والآن يسرنا ان نذكر على صفحات هذه المجلة ما يقوم به الاساتذة الوطنيون بمصر من الاعمال التاريخية القيمة وما يبذلونه من الوقت والمال في سبيل الوقوف على الحقائق التاريخية المعاصرة . نعم ان في القطر الشقيق اليوم رهطاً من المؤرخين الوطنيين الذين لا يدخرون وسعاً في تنقيح وتهذيب التاريخ المعاصر لاجل اخراجه على اصح الصور وامثلها . منهم سمو الامير الجليل عمر طوسن باشا وحضرات الاساتذة الافاضل محمد بك رفعت وشفيق بك غربال ومحمد بك صبري . فسمو الامير يعنى عناية خاصة بتاريخ النيل وتاريخ جده

الاكبر محمد علي باشا وله في ذلك المؤلفات الضخمة المملوءة من الحقائق والفوائد . ولحضرة الاستاذ محمد بك رفعت ولع شديد بتاريخ القطر المصري في القرن التاسع عشر وهو كبير المؤرخين المصريين الذين تلقوا علومهم في بلاد الانكليز وله كتاب نفيس في تاريخ مصر الحديث ومقالات شائقة في مجلة المقتطف وغيرها . وكذلك الدكتور محمد بك صبري استاذ التاريخ بدار المعلمين العليا فانه لا يشبع من التجويل في الغرب والتنقيب في مكاتبهِ ومجموعاتهِ لاجل التاريخ المعاصر بمصر . وله كتاب ضخم في امبراطورية محمد علي باشا ظهر في العام الماضي حاوياً بعض المعلومات التاريخية التي لم يتسنَّ لاحد من قبله الاطلاع عليها واكثرها مأخوذ من الاوراق التركية التي لم تنشر بعد والتي لا تزال محفوظة في الدفترخانه المصرية . ومما لاريب فيه ان كتاب الصديق شفيق بك غربال — استاذ التاريخ الحديث بالجامعة المصرية — في اصل المسئلة المصرية وظهور محمد علي باشا هو ادق واكمل واوضح وافضل ماظهر بهذا الموضوع في الاقطار الشرقية . فللاستاذ الزميل نقدم تهانينا الخلصة وتمنياتنا الطيبة ونرجو له مستقبلاً باهراً في خدمة العلم والوطن . ويسرنا ايضاً ان نقدم لقراء هذه المجلة كتاب الاستاذ الجليل عبد الرحمن بك الرافعي في الحركة القومية وتطور نظام الحكم بمصر الذي يتضمن تاريخ مصر السياسي من سنة ١٧٩٨ — ١٨٤٩

واليك ما قاله الاستاذ الرافعي عن غرض كتابهِ : « لكل امة صفحة من الحياة القومية تحتوي تاريخ الجهود التي بذلتها والآلام التي عانتها في سبيل حريتها واستقلالها . وهذا كتاب دونت فيه تاريخ الحركة القومية المصرية ، اضع بين ايدي القراء الجزء الاول منه راجياً ان اتبعه بالاجزاء الباقية ، لاحقق املاً تعلقت بهِ نفسي واتم عملاً شرعت به منذ سنين . كان في نيتي من سنوات عدة ان اضع تاريخاً لفقيد الوطن العظيم المغفور له مصطفى كامل على مثال كتاب بول دشانل عن جامبتا خدمة للقضية الوطنية واداءً لواجب الوفاء نحو من تلقيت عنه مبادئ الوطنية الاولى .

اعددت مواد الكتاب و كتبت بعض فصوله لكن تاريخ مصطفى كامل باشا استتبع الكلام في مبدأ ظهور الحركة القومية بمصر والتطورات التي تعاقبت عليها فاستوقفني هذا البحث واخذت اعالج ادماجه في الكتاب كفصل من فصوله فلم استطع لتشعب الموضوع وانفساح مداه فتغيرت وجهة نظري وتاقت نفسي الى دراسة ادوار الحركة القومية من بدء ظهورها الى اليوم فعزمت على تغيير برنامج الكتاب ووضعت له تبويباً يجعل تاريخ مصطفى كامل باشا جزءاً من اجزائه »

هذا هو موضوع الكتاب الذي الفه حضرة الاستاذ عبد الرحمن بك الرافعي وهذه هي المسائل التي بحثها جهد المستطاع . وحبذا العمل فان الكتاب والحق يقال من احسن الكتب التاريخية الوطنية التي ظهرت بمصر في العصر الحاضر . فالاستاذ الرافعي راجع قسماً كبيراً من التآليف المهمة في تاريخ مصر المعاصر وزين كتابه بالخرائط والرسوم وقدمه وذيله بالجداول الضرورية . وقد احسن في الاعتماد على مؤلف كادالفان وبارو عن الحرب في سورية عام ١٨٣٢ وفي نقل الخرائط الحربية التي ظهرت في آخر هذا المؤلف والتي لا يعرفها العالم العربي . وكذلك فانه اصاب بالرجوع الى بعض المؤلفات الوطنية التي تحفظ لنا اقوال المعاصرين ككتاب الدكتور مخائيل مشاقه وغيره . بيد انا لا بد ان نستأذن حضرة الاستاذ الرافعي في القول ان ما اعتمد عليه من كلام الدكتور مشاقة ليس هو له بل لملحم افندي عبدو والدكتور اندراوس شخاشيري اللذين طبعا مخطوطة الدكتور مشاقه عام ١٩٠٨ فقد جاء في الصفحة ١٢٦ من هذا الكتاب المطبوع ما لم يرد في النسخ المخطوطة من الكتاب نفسه ومنها النسخة التي هي بخط الدكتور مشاقه نفسه والتي لا تزال محفوظة لدى جرجس بك صفا في بيروت . وزيادة للايضاح نرى فيما يلي والى اليمين الكلام المطبوع الذي اقتبسه واعتمد عليه الاستاذ الرافعي وترى الى اليسار النص المخطوط الذي هو كلام الدكتور مشاقه بموجب النسخ المخطوطة في بيروت ومصر والذي يجب الاعتماد عليه دون غيره

دخلت سنة ١٨٣٩ والامور في سوريا على ما رويناه لك وبما ان دوام الحال من المحال شاء ربك تغييراً في البلاد فجاءها جاسوس من قبل الدولة السكسونية ونزل في كسروان وانتحل من المعاذير انه قدم ليتعلّم لغة البلاد ونحن في مركز لا يخول لنا تكذيب الخبر او تصديقه فنرويه كما جاءنا وعلى القارئ ان يحكم لنفسه . دخل الرجل الذي سميناه جاسوساً واسمهُ الحقيقي وود كان ترجماناً لقنصل دولته بالاستانة واصبح قنصلاً في تونس بعدئذ

واظهر في بادئ الامر ميلاً غريباً الى تعلم اللغة العربية وتقلب على امياله لدرس احوال البلاد ونقد الحكومة الحاضرة ولكن تظاهره لم يسدل على عيون النقادة وشاحاً اعماها عن معرفة غرضهِ الرئيسي ولا مشاحة ان دولة الانكليز اكثر الدول استعماراً وكانها اوجست خيفة من الدولة المصرية التي مع حداثة نشأتها اصبحت في مصاف الدول المرتقية وكانها لحظت ان محمد علي باشا يطمع بعد ضم البلاد الى مبايعته بالخلافة واحياء الدولة العربية القديمة وان ارجاع دولة اسلامية عربية هذا شأنها في تنظيم احوال الرعية قامت على اساس العدل وجارت به الدول المتمدنة ولم تغفل بطلها ابراهيم باشا نابليون مصر بل ذكرته فدخلت سنة ١٢٥٦ وكان قبلاً حضر لكسروان المسيو ريجارد وود احد تراجمين السفارة الانكليزية بالاستانة (الذي هو الآن قنصل جنرال الانكليز في تونس ونايب جلالة الملكة)

وذكرت كل حسنات دولة مصر الفتاة فخافت منها ان تكون مزاحمتها في الاستعمار وتقف بوجهها حاجزاً منيعاً لاضعاف الشرق الادنى فرامت مقاومتها قبل ان يقسو ضلعها وادركت عجز الدولة التركية عن ايقاف نموها وارتقائها فزادت ميلاً الى المداخلة ولذلك ارسلت رجلها الذي ذكرناه والذي اخذ له استاذاً لتعليم اللغة العربية الخوري ارسانيوس الفاخوري فكان يدرس عليه ويلقي بذور الشقاق في قلوب الاهالي ويوغر صدورهم على الحكومة الحالية بوقت واحد وجعل مركزه جبل كسروان ولم يمض الوقت على وصوله الا انتشر خبر اتفاق الدولة الانكليزية والنمساوية والتركية على الدولة المصرية وطردها من سوريا الخ

وكان الظاهر ان حضوره هو لتعلم اللغة العربية الذي اتخذ له معلماً بها الخوري ارسانيوس الفاخوري الماروني واما عمله الباطني كان عمل الوسايط لزعزعة حكومة المصريين في سوريا وكانت اقامته في جبل كسروان ثم شاع اتفاق الانكليز والنمسا مع الدولة العثمانية ضد المصريين الخ

ولربما توهم القارئ ص ٢٣٢ من المجلد الثالث ان محمد علي باشا كان يعمل لاحياء القومية العربية والصحيح ما نشرناه في هذه المجلة ج ١٥ ص ٣٨ — ٤٣ حيث قلنا « ليس في الامكان الان البت في امر علاقة ابراهيم باشا بالقومية العربية بالرغم عن تصريح البارون بو الكونت . لانه ليس لدينا سوى شاهد واحد . والعلم الصحيح يمنع الاثبات والتصديق في الامور التاريخية التي ليس لها سوى راوٍ واحد مهما عظمت مكانته الادبية ومقدرته الفنية » ولا يخفى ان هذا الكلام المأخوذ عن ابراهيم باشا واعوانه فضلاً عن ان الشهادة الوحيدة من نوعه فانه من فصيلة البروبوغاندة السياسية التي تكثر في ايام الحروب والتي تنشر لتأييد مقاصد خاصة . وليس في امكاننا الان ان نقبل ما اقتبسه الاستاذ الرافعي من كلام الدكتور مشاقه ص ٣٢٠ من المجلد

الثالث شهادة ثانية لتأييد رأيه في علاقة الباشا بالقومية العربية اذ اننا ابنا في العمودين اللذين نشرناهما اعلاه ان ما جاء في الصفحة ١٢٦ من كتاب مشهد العيان عن القومية العربية والخلافة وغيرهما هو بالحقيقة كلام الطابعين لا كلام شاهد عيان

ويقول الاستاذ الرافعي ص ٢٣٤ « لم يكن السوريين متعلقين بالحكم العثماني لكثرة ما عانوا من مساوئه ومظالمه . فلم يكن متوقعاً ان يلقى الجيش المصري في زحفه على سورية مقاومة من الاهالي » . وحبذا لو ان الاستاذ عدل هذا الكلام فاكتفى بادخال الكلمة بعض على جملته هذه بحيث يقول لم يكن « بعض » السوريين متعلقاً بالحكم العثماني لكثرة ما عاناه من مساوئه ومظالمه . فقد ابنا في مقدمتنا لمخطوطة نوفل نوفل ان المعارضة للحكومة المصرية ابتدأت يوم دخول هذه الحكومة الى ارض فلسطين وساعة استيلائها على ازمة الامور في سورية . لان مخالفته بيت عبد الهادي والامير بشير ومصطفى اغا بربر جعلت بقية الاحزاب التي كانت تناوئ هذه الفئات وتناظرها في الجاه والقوة مثل بيت طوقان وبيت جرار وبيت جنبلاط وبيت عماد وبيت نكد وبيت حرفوش وقسم مهم من اعيان طرابلس ودمشق — جعلت كل هذه الاحزاب — تنفر من محمد علي باشا وابنه ابراهيم . نعم فان جميع هذه الاحزاب نفر من الحكومة المصرية يوم دخولها الى هذه البلاد واشترك اشتراكا فعلياً في مقاومتها[1]

وقد استهجنا جداً اقتباس الاستاذ الرافعي كلام محمد فريد بك في تفصيل موقعة الزراعة ص ٢٤٠ مع انه اعتمد على كادالفان وبارو في رواية معركة حمص وغيرها من وقائع الفتح . فمحمد فريد بك نقل من غير تروٍ ولا تبصر ما جاء في كتاب فانتزينيه عن حياة سليمان باشا

---

(١) اطلب كلامنا في مجلة الكلية ج ١٠ ص ٢٢٠ ومجلة الجمعية الفلسطينية للابحاث الشرقية ج ١٠ ص ٤٥ . راجع ايضاً كتابنا الاصول العربية لتاريخ سورية في عهد محمد علي باشا ج ١ رقم ٥٦ و ٥٩ ومخطوطة القس انطون الحلبي التي نشرناها بمصر ج ١ ص ١٢ — ٢١ . اطلب ايضا رسالتنا تحقيق وتدقيق ص ١٥ — ٢٢

وفانترينيه هذا الذي كان مديراً لمكتبة ليدن في النصف الاخير من القرن الماضي كان اقرب الى ادباء فرنسه من علمائها المؤرخين . وهو لا يفرق بين معركة الزراعة وواقعة حمص المشهورة فيخلط شعبان برمضان . كان يجدر بالاستاذ الرافعي ان يعتمد على رواية ابراهيم باشا نفسه او على كلام ابراهيم يكن باشا كما نشرناهما في المجلد الاول من مجموعتنا الاصول العربية لتاريخ سورية في عهد محمد علي باشا رقم ٥٤ و ٥٧ او على كلام كادلفان و بارو كما فعل هو في امر الواقعة الكبرى بحمص . فان ابراهيم باشا لا يذكر الخدعة الحربية التي وردت في كتاب البهجة التوفيقية وهو يشير الى نهر الساخنة بالزراعة لا العاصي كما ورد في شرح الاستاذ الرافعي . هذا ولعل الفرصة موافقة الان للقول ان كتاب البهجة التوفيقية وان ظهر على ديباجته انه لمحمد فريد بك فان قسماً مهماً منهُ هو بالحقيقة ترجمة كتاب فانترينيه المشار اليه آنفاً .

وقد استغربنا ايضاً ما ورد في ص ٢٨٧ حيث يقول الاستاذ الرافعي : « انفذ ابراهيم باشا الاياً من الفرسان لاجل التنكيل « بقبيلة » ابي غوش » وال ابي غوش في ذلك العهد قوم حضر لهم بيوتهم وقراهم ومنهم الحاكم المدني والقائد العسكري . ولربما توهم القارئ ص ٢٨٨ ان قرية العنب بفلسطين (كانت محصنة تحصينا منيعاً) من نوع تحصين يافا وعكا وطرابلس والحقيقة انها لم تكن على شيء من ذلك . وجاء في صفحة ٢٨٩ ان الامير بشير الشهابي (حاصر) صفد عام ١٨٣٤ والصحيح انه لم يصل اليها ليتسنى له حصارها[1] وقد اتضح لنا بعد المقابلة بين كلام الاستاذ الزميل ورواية محمد بك فريد ان ما ورد اعلاه مأخوذ كله من كتاب البهجة التوفيقية . سامح الله فانترينيه ومحمد بك فريد ووقى كتاب العصر من اتباعهما .

---

(١) اطلب كتاب اخبار الاعيان للشيخ طنوس الشدياق ص ٥٧٩ وكتاب القس انطون الحلبي الذي نشرناه في مصر ج ١ ص ٤٥ اطلب ايضاً المجلد الثاني من كتابنا الاصول العربية لتاريخ سورية في عهد محمد علي باشا رقم ١٣٣ وغيره

وقد ورد اسم المعركة الفاصلة التي جرت بالقرب من نهر الفرات عام ١٨٣٩ (نصيبين) مع ان اكثر المؤرخين الوطنيين والاجانب ذكر وقوعها في نزيب والعلم يقضي بوضعها كما وردت في الاصول. ومع ان سعادة الاستاذ احمد زكي باشا يعتقد ان نزيب هي تحريف نصيبين فانه لم يأت ببرهانه بعد ولذا فاننا نرى انفسنا مضطرين ان نحافظ على صيغتها الواردة في الاصول ريثما يتمكن الاستاذ الباشا او غيره من اظهار البراهين المقنعة. وكذلك ما ورد ص ٣٢٦ ــ ٣٢٧ عن ضرب عكة عام ١٨٤٠ فانه لا يتفق مع كلام الكومودور نابيير الشاهد العيان في كتاب الحرب بسورية ج ١ ص ١٩٦ ــ ٢١١

واخيراً فاننا نكرر ثناءنا على حضرة الزميل الاستاذ الرافعي لما عني به من نشر هذا الكتاب وننصح لطلاب التاريخ من العامة والخاصة بمقتناه